خاتمة

الخلاصة :

لهذا البحث — على تشعُّب طُرُقه وتباعد أطرافه — وحدة عامة تنتظمه كلَّه : تقرِّب منه ما تباعد، وتجمّع ما تفرَّق . ولهذه الوحدة العامة دعائم ترتكز عليها وتقوم بها :

١

أولها : أن هذا الموضوع ، كغيره من الموضوعات ، يدور فى نطاق إطار معيَّن من الزمان والمكان والسكان . فكان لا بدَّ لنا من أن نمهِّد بين يدى بحثنا بتحديد معالم هذا الإطار . وخلصنا من كل ذلك إلى أن موطن العرب ، فى جاهليّهم ، كان متفاوتاً فى طبيعة أرضه ، وفى طبيعة مُناخه ، وفى طبيعة سكَّانه . أما السكان أنفسهم فكانوا طوائف ثلاثاً : أعراباً موغلين فى الصحراء ، يرتادون الكلأ ، وينتجعون مواقع القَطْر ، ويحيون حياةً لا تكاد تعرف من أسباب الحضارة والمدنية شيئاً . ثم سكان الحواضر من أهل المدَر الذين كانوا يحيون حياة مستقرة ثابتة ، فى المدن والقرى ، فى داخل الجزيرة العربية وعلى أطرافها : فى مكة والمدينة والطائف واليمن والحيرة والأنبار وقرى اليمامة . ثم طائفة ثالثة هم سكان البادية الذين ابتعدوا عن جوف الصحراء واستوطنوا مشارف المدن والقرى فى ظواهرها وضواحيها ، يحيون حياة فيها شىء من الاستقرار ، وشىء من الأخذ بأسباب الحضارة والمدنية .

والقبيلة العربية نفسها لم تكن شيئاً غير هذا ، بل إن هؤلاء العرب بطوائفهم الثلاث لم يكونوا إلا قبائل عربية ؛ فليست القبيلة كلها إذن أعراباً

موغلين فى الصحراء ، بعيدين عن كل أسباب الحضارة والمدنية ، وإنما كانت القبيلة الواحدة فى الجاهلية — كما كانت فى صدر الإسلام ، بل كما هى لعهدنا هذا — ثلاثة أقسام : قسم ما زال ضارباً فى جوف الصحراء ، وقسم تحضر واستقرّ وسكن المدن والقرى ، وقسم بين هذين القسمين : يبتعد عن جوف الصحراء ولكنه لا ينزل قلب المدن والقرى ، وإنما يستوطن باديتها وظاهرها . وعلى ذلك كانت : قريش والأوس والخزرج وهُذَيل وعبد القيس وبكر وتغلب وأكثر قبائل العرب ؛ يتحضر بعضها ويسكن المدر فى : مكة ويثرب والطائف وقرى اليمامة والجزيرة ، ويبدو بعضها فينزل فى ظواهر هذه المدن والقرى وضواحيها ، ثم يبقى بعضها على ما كان عليه أصلاً فى جوف الصحراء .

وكما انقسمت القبيلة العربية الواحدة ثلاثة أقسام فى موطنها وحياتها الاجتماعية ، كانت كذلك فى دينها : فقد كانت أكثر القبائل فى الصحراء وثنية مشركة ، وكان كذلك بعض هذه القبائل فى البادية والحواضر ، ولكن من هذه القبائل نفسها من كان يعبد الله ، إما لأنه دخل فى النصرانية أو اليهودية ، وإما لأنه ما زال مقيماً على بعض دين إبراهيم . فاليهود والنصارى فى بلاد العرب كانوا فى أكثرهم قبائل عربية تهوّدت أو تنصّرت .

وكانت هذه المدنية التى عرفها سكان الحواضر وقُطّان البوادى المطيفة بها — على تفاوت نصيبهم منها فى الجاهلية الأخيرة القريبة من الإسلام — نتاجَ عاملين كبيرين : عامل تليد موروث يحسّون به ولا يكادون يستبينونه فى وضوح ، ويدركون أطرافاً منه ، ولكنهم لا يقوَوْن على بعث الحياة فيه ، وكانت آثار هذه المدنية الموروثة وشواهدها ماثلة أمام أعينهم ، يرونها فى حِلِّهم وترحالهم ، حتى إذا نزل القرآن ذكّرهم بها واستمدّ منها العظة والعبرة . وعامل طريف مقبوس يستمدونه من اتصالهم الوثيق بالحضارات القائمة من حولهم فى بلاد فارس والروم ومصر .

ومن أجل ذلك كله كان لا بد للباحث من أن يتنبّه لهذه الفروق الكبيرة فى

حياة العرب ومجتمعاتهم فى الجاهلية ، فلا يُلقى القول إلقاءً عامًّا يشمل عرب الجاهلية كلهم . فإن من الخطأ أن نعمّم على سكان الحواضر والبوادى أحكاماً يتّصف بها قطان الصحارى وحدهم ، أو أن نَصِمَ أهل المدر بالجهل والبدائية اللذين كانا من صفات بعض أهل الوبر .

وإذْ كان ذلك كذلك ، كان لا بدّ لسكان الحواضر المستقرّين فى مدنهم وقراهم ، ولقطان البادية القريبة من الحواضر ، المطيفة بها — من أن يأخذوا بنصيب متفاوت من مظاهر الحضارة التى كانت تعرفها الأمم المجاورة لهم .

٢

ومن هنا كان حديثنا فى الباب الأول من بحثنا عن أهم مظهر من مظاهر هذه الحضارة — وهو الكتابة والتدوين . فاستقرّينا فى الفصل الأول النقوش الجاهلية الشمالية ، وانتهينا إلى أن هذا الخط العربى — الذى عُرف فى الإسلام بالخط الكوفى — قد كان معروفاً فى الجاهلية منذ مطلع القرن الرابع الميلادى على أقل تقدير ، وأن عرب الجاهلية قد كتبوا بهذا الخط الذى كان المسلمون يستطيعون قراءته فى يُسْر ، ونستطيع نحن الآن أن نقرأه بعد شىء من المرانة والدربة — ثلاثة قرون قبل الإسلام أو تزيد . ثم جمعنا قدراً صالحاً من النصوص والروايات — بعضها يكاد يكون قاطع الدلالة — وخلصنا منها إلى ترجيح معرفة عرب الجاهلية بالنَّقْط والإعجام . ثم عرضنا آراء بعض القدماء الذين عمموا الحكم على عرب الجاهلية فوصموهم بالجهل والأمية ، ورددنا هذه الأحكام ردًّا اطمأننا إلى صوابه ، وزاد اطمئناننا حين جمعنا بعض أسماء المعلمين فى الجاهلية ، وبعض النصوص والأخبار التى تشير إلى قيام مدارس لتعليم الكتابة فى الحواضر العربية فى الجاهلية نفسها ، وزدنا على ذلك أن بعض عرب الجاهلية لم يكونوا يكتفون بتعليم الكتابة العربية وحدها ، وإنما كانوا يتعلمون أيضاً لغات الأمم التى تربطهم بهم روابط كثيرة ،

فكان من العرب من يكتب العربية والسريانية والعبرية والفارسية ، وكان فى بلاد فارس وفى بلاط النجاشى مترجمون من العرب يكتبون بالعربية حين يحتاج الأمر إلى أن يترجموا إليها ويكتبوا بها .

واستوفينا فى الفصل الثانى بحث هذا الموضوع حين تحدثنا عن الموضوعات التى كان يكتبها عرب الجاهلية ، والمواد والأدوات التى كانوا يستخدمونها فى كتابتهم ؛ فجمعنا من النصوص والروايات ما يشير إلى أن عرب الجاهلية كانوا لا يكادون يتركون شأناً من شئون حياتهم الخاصة والعامة إلا سجّلوه وقيّدوه ، ولم يتركوا مادة ولا أداة عرفها العالم من حولهم آنذاك إلا استخدموها فى كتابتهم . فكانوا يدوّنون كتبهم الدينية بالعربية وبالعبرية والسريانية ، وكانوا يكتبون عهودهم ومواثيقهم وأحلافهم ، ويسجّلون فى الصكوك حسابَ تجارتهم وحقوقَهم ويكتبون رسائلهم فى جليل أمورهم وصغيرها ، بل كانوا يكتبون مكاتبات رقيقهم وينقشون خواتمهم وشواهد قبورهم .

واستخدموا فى كتابتهم الجلد : من رَقّ وأديم وقضيم ؛ والقماشَ المصنوع من القطن الأبيض يصقلونه ويُعدّونه للكتابة ويسمونه المهارق ؛ وأنواعَ النبات وخاصة العُسُب ، والخشب ؛ واستخدموا العظام بأنواعها المختلفة. ثم تحدثنا عن الورق حديثاً مفصلاً انتهينا منه إلى ترجيح استخدام عرب الجاهلية لورق البردىّ فى الكتابة .

وكان ختام هذا الباب حديثاً موجزاً عن وصف الخط والكتابة فى الجاهلية . وبذلك نكون قد رجحنا ثلاثة أمور لها قيمتها وخطرها ؛ أولها : قِدَمُ معرفة عرب الجاهلية بالخطّ العربى معرفةً لا تقلّ عن ثلاثة قرون قبل الإسلام ؛ وثانيها : نقط الحروف وإعجامها فى الكتابة منذ الجاهلية نفسها ، وثالثها : قيام المدارس ووجود المعلمين لتعليم الخط وانتشار الكتابة بين عرب الجاهلية انتشاراً أتاح لهم أن يسجّلوا بها كثيراً من شئونهم وأن يستخدموا لذلك كثيراً من الأدوات .

٣

وكان من الطبيعى بعد ذلك أن نخصص الحديث ، فى الباب الثانى ، بكتابة الشعر الجاهلى وحده . ورأينا أن هذه الكتابة ذات صورتين مختلفتين : صورة ضيقة محدودة لا تعدو مجرّد التسجيل على صحيفة واحدة قد تزيد أو تنقص ، وسميناها التقييد ؛ وصورة واسعة تُضَمّ فيها هذه الصحف إلى بعضها حتى يكون منها كتاب أو ديوان ، وسميناها : التدوين .

ثم رأينا أن بين أيدينا ضربين من الأدلّة على تقييد الشعر الجاهلى منذ الجاهلية نفسها ؛ وهما : أدلة عقلية استنباطية ، وأدلة صريحة نصّيّة .

أما الأدلة العقلية الاستنباطية فأربعة : أولها استنتجناه من كل ما قدمناه فى الباب الأول عن معرفة عرب الجاهلية بالكتابة ، ورأينا أن الشعر كان للقبيلة وللفرد العربى فى الذروة العليا من القيمة والخطر : إذ هو ديوان أمجادهم وأحسابهم ، وسجل مفاخرهم ومآثرهم . وكانت القبيلة تحرص أشد الحرص على فخر الشاعر إذا كان منها ، وعلى مدحه إذا كان من غيرها ، وتخشى أشدّ الخشية هجاءه ، تبذل من ذات نفسها ومالها ما تطيق وفوق ما تطيق لتدفعه عن نفسها ؛ وكذلك كان الرجل العربى فى حرصه على المدح وخوفه من الهجاء . فإذا كان العرب آنذاك يقيّدون عهودهم ومواثيقهم ورسائلهم وصكوك حسابهم وسواها من الموضوعات التى تتصل بشئون حياتهم ، ألا يرجّح ذلك أنهم كانوا كذلك يقيّدون هذا الشعر الذى يخلّد أمجادهم وأحسابهم ويسجّل مفاخرهم ومآثرهم ؟ وإذا كان أمر الشعر بهذا الخطر للممدوحين ، فهل كان ملوك الحيرة وملوك غسان وأشراف مكة والمدينة والطائف وساداتها وأثرياؤها ، وسادات نجران واليمن ، هل كان كل أولئك لا يقيّدون ما يُمْدَحون به من الشعر — أو بعضه — مع أنهم كانوا يقيّدون سائر أمورهم ؟

وثانيها : أن الشعر كان له من القيمة والخطر للشعراء أنفسهم ما كان للقبيلة والممدوحين . فقد كان هذا الشعر عند غير المتكسّبين بالمدح واجباً قَبَلِيًّا تفرضه على الشاعر طبيعة ارتباطه بقبيلته ، أو واجباً خلقيًّا تمليه عليه مآثر سلفت من صاحبها لقبيلة الشاعر أو للشاعر نفسه ، وأما المتكسبون بالمدح فقد كان الشعر مورداً من موارد ارتزاقهم ، أو لعله المورد الوحيد . أليس عجيباً بعد ذلك ألا يعنى الشاعر ، وهذه قيمة الشعر عنده ، بأن تحفظ الكتابةُ شعرَه أو بعضه ؟ ولا سيما الشعراء الذين كانوا يعرفون الكتابة ويستخدمونها ، وقد عددنا منهم فى هذا الفصل طائفة ليست قليلة .

وثالث هذه الأدلة العقلية يتناول ضرباً خاصًّا من الشعر الذى وصفه فى شعره : امرؤ القيس بن بكر ، وكعب بن زهير ، ثم وصفه الجاحظ وابن جنّى — والذى هو نتاج عمل عقلىٌّ مركّب .

فإذا كنا لا ننكر أن بعض الشعراء كانوا يرتجلون الشعر ارتجالاً ، وأن بعضهم كان يندلث منهم الشعر اندلاثاً هيّناً سمحاً ، وأن هاتين الطائفتين أو بعض رجالهما لا تضطرهم طبيعة هذا الضرب من الشعر إلى تقييده وإثباته بالكتابة — إذا كنا لا ننكر ذلك ، فإنه لا بد لنا من أن نتريّث قليلاً عند الفئة الأخرى من الشعراء وشعرهم ، وأن نتوقّف عن أن نسحب عليهم حكم الضرب الأول . ويبدو لنا أنه لا بد من أن نرجّح أن الشاعر الذى كانت تمكث عنده القصيدة حولاً كاملاً أو زمناً طويلاً ، يردّد فيها نظره ، ويجيل فيها عقله ، ويقلّب فيها رأيه ؛ والشاعر الذى كان يعرض له فى الشعر من الصبر عليه ، والملاطفة له ، والتلوّم على رياضته ، وإحكام صنعته نحوٌ مما يعرض لكثير من المولّدين ؛ والشاعر الذى كانت تكثر عليه القوافى فيذودها عنه ذياداً ، ثم ينتقى منها الجيّد انتقاءً ، وينظر إلى قوافيه وألفاظه نظرة الجوهرىّ إلى لآلئه ، يعزل مرجانها جانباً ، ويأخذ المستجاد من درّها ؛ والشاعر الذى يتنخّل كلامه تنخلاً ، ويثقّف ألفاظه وقوافيه حتى تلين متونها — نرجّح أن هؤلاء الشعراء لم

يكونوا ليستطيعوا أن يقوموا بهذا العمل العقلى الذى يستغرق هذا الوقت الطويل دون أن يكون الشعر مقيَّداً أمامهم على صحيفة يرجعون إليها بين وقت وآخر : يزيدون عليه أو ينقصون منه ، ويستبدلون لفظة بلفظة ، وقافية بقافية .

وآخر هذه الأدلة العقلية هو ما وجدناه من شعر جاهلى يحفل بذكر الكتابة وصورها ، والإشارة إلى أدواتها ، وتشبيه الأطلال والرسوم ببقايا الخطوط على الرَّقّ والمهارق وسائر أنواع الصحف . ولم نذكر من هذا الشعر إلا ما فيه صُوَر شعرية مركَّبة تنبئ عن أن قائلها لا بد أن يكون عالماً بهذه الصور ، وأن الجاهل بها لا يتأتَّى له ذكرها ووصفها على هذا الوجه المفصَّل .

وبعد أن استوفينا هذه الأدلة العقلية التى استنتجنا منها أن بعض شعراء الجاهلية ربما استخدموا الكتابة فى تقييد بعض شعرهم ، انتقلنا إلى ذكر الأدلة الصريحة المباشرة ، فأوردنا ما يزيد على عشرين نصًّا ورواية ، لمسنا نثارها ، وجمعنا متفرِّقها ، ونظمناها فى سلك واحد لنرى أنها واضحة صريحة فى أن بعض الشعر الجاهلى كان يقيَّد ، سواء أكان الشعراء الجاهليون أنفسهم هم الذين يقيدونه بخط أيديهم ، أم كانوا يستكتبون غيرهم لتقييد شعرهم .

أما تدوين الشعر الجاهلى فقد وجدنا أننا لا نستقيم لنا طرائق بحثه إلا إذا عبَّدنا من حوله سبل الحديث عن نشأة التدوين العام وأوائل المؤلفات المدوَّنة ، وذلك لأنه لا تخصيص إلا بعد تعميم ، فإذا كان الأصل الكلىُّ — وهو التدوين عامةً — ما زال غامض النشأة ، مشكوكاً فى بداياته ، منكوراً قِدَمُهُ وسبقه ، فإن الفرع الجزئى — وهو تدوين الشعر الجاهلى بخاصة — لا يصح أن يقوم وحده معلَّقاً فى الفضاء وحوله سحب الشك والإنكار . ومن أجل ذلك مهَّدنا بحديث موجز انتهى بنا إلى ثلاثة أمور :

الأول : ان صحف الكتابة كانت — منذ ظهور الإسلام وفى القرن الأول الهجرى — من الكثرة والشيوع بمنزلة يتيسَّر معها ، لمن أراد ، أن يشترى منها ما يفى بحاجته ، فيستطيع أن يضمَّ بعضها إلى بعض ، ويؤلِّف أجزاءها ، ويجعل من

مجموعة هذه الصحف كتاباً أو ديواناً مؤلَّفاً .

والثانى : استيفاءٌ للأول ، وهو بيان المظهر اللغوى ، أو الصورة اللغوية للتدوين فى ذلك العصر المبكر ، فجمعنا من الألفاظ التى وردت فى نصوصهم وأخبارهم والتى كانوا يطلقونها ليدلُّوا بها على مجموعة الصحف المدوَّنة ، والتى كانت تختلف عن ألفاظهم الدالَّة على الصحيفة المفرَدة — جمعنا من كل ذلك ما يدعم معرفتهم بالتدوين .

والثالث : أننا عرضنا من الروايات والنصوص عن تدوين الحديث والفقه ، والتفسير ، والمغازى والسيرة ، ما لا يبقى معه شك فى أن بعضها كان يدوَّن منذ عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعهد صحابته .

أما الشعر الجاهلى نفسه فقد دوِّن منذ هذا العهد المبكر تدويناً عامًّا ضمن هذه الموضوعات التى ذكرناها للاستشهاد به ، أو الاحتجاج ، أو التمثُّل ، أو تفسير الألفاظ وشرح غريبها . وكان مدوِّنو الحديث والتفسير والمغازى والسيرة هم من رواة الشعر وحفَّاظه . ودوِّن فضلا عن ذلك تدويناً خاصًّا مستقلاً . فجمعنا من الأخبار والروايات ما تقطع بأن الشعر الجاهلى كان مدوناً فى القرن الأول الهجرى ، وأن العلماء الرواة فى القرن الثانى قد وصلهم بعض هذه المدونات الشعرية واعتمدوها أصلاً من الأصول التى استقوا منها ما جمعوا من هذا الشعر . ثم أضفنا إلى هذه الأخبار والروايات الصريحة دليلاً ثانياً على أن العلماء الرواة فى القرن الثانى قد أخذوا من المدوَّنات ، وهو ما وقعوا فيه من تصحيف ، ثم جمعنا أمثلة على التصحيف الذى لا يمكن أن يكون من خطأ فى السماع ، وإنما ينشأ من خطأ فى القراءة .

وإذا كان ذلك كله ينتهى بنا إلى أن هذا الشعر الجاهلى قد كان مدوَّناً فى القرن الأول الهجرى ، فقد قطعنا شوطاً آخر قبله ، وجمعنا من النصوص والأخبار ما يرجِّح أن بعض هذا الشعر قد كان مدوَّناً منذ الجاهلية نفسها ، وحين استوى بين أيدينا كل ذلك زدنا عليه حديثاً موجزاً عن كتب القبائل والنسب ، وعن كتب العلم التى كانت تشتمل على بعض الحكم والأمثال وجوامع الكَلِم ، وأن

بعضها كان كذلك يدوّن فى الجاهلية .

ثم تساءلنا عن السبب الذى جعل علماء القرن الثانى يُغفلون ذكر مصادرهم المدوَّنة إذا كانوا قد أغفلوا عن الصحف حقًّا . وقد وجدنا جواب ذلك فى هذه النصوص والأخبار الكثيرة التى أوردناها ، والتى تدلّ على أن القوم آنذاك كانوا يضعّفون كلّ من يأخذ عن صحيفة أو ينقل من كتاب ، وكانوا يلمزونه ويدّعونه ضعفيًّا ، فكان لا بد إذن لهذا العالم من أن يأخذ علمه من مجالس العلماء الشيوخ . وحين وصفنا هذه المجالس وضّحنا معنى الرواية الأدبية ، وقلنا إن الرواية كانت طريقة علمية متكاملة تقوم على دعامتين : الكتاب والسماع . فقد كان العالم الحقّ الجدير بالثقة هو الذى يتصل بالعلماء من ذوى السن ، فيحضر مجالسهم ويلازمهم ويستمع إليهم ويأخذ عنهم ، والكتاب فى كل ذلك ، أو فى أكثره ، هو الوسيلة أو الأداة : يقرأه على شيخه ، أو يستمع إلى بعض من يقرأه ، وقد تكون فى يده نسخة أخرى من الكتاب يتابع قراءة القارئ ، والشيخ يستمع : يصحّح الخطأ ، ويشرح الغريب ، ويذكر من وجوه الخلاف فى الألفاظ ما بلغ إليه علمه ، ويتحدّث عما حول النص من جوّ تاريخى ، وقد يقوده اللفظ أو الخبر إلى لفظ فى بيت آخر ، أو إلى خبر فى حادثة أخرى ، فيستطرد ، ثم يعود إلى حيث كان . ثم إذا بلغ هذا المتعلم من العلم مبلغاً يتيح له أن يجلس منه المتعلمون مجلسَه من أولئك العلماء ، لم يذكر الصحيفة التى أخذ منها أو الكتاب ، لئلا يُتوهَّم فيه أنه ممن اكتفى بالأخذ عن الصحف — وإنما أسند ما يلقيه من العلم إلى شيوخه ، فيقول : حدثنا فلان ، وأخبرنا فلان ، وسمعت فلاناً يقول . وهذه الصيغ المختلفة للتحديث مُوهِمةٌ أنها كانت روايةً شفهيةً ، وأن مجلس العلم كان كله حديثاً لا كتاب فيه . ولكن الأمر على غير ذلك ، فإن هذه الصيغ كلها إنما تدلّ على ما ذكرناه من حديث العالم الشيخ فى مجلسه ، والمتعلمون والعلماء من حوله يقرأون أو يستمعون إلى ما يقرأ ، والشيخ العالم يشرح . ثم أوردنا أخباراً وروايات كثيرة تدل على أن مجالس العلم كانت

تقوم على قراءة الكتاب وحديث الشيخ معاً ، بل لقد جمعنا أخباراً أخرى تدل على أن الإسناد وصيَغ التحديث قد تُوُهم السَّماع على حين لا سماع ، وإنما هو أخذ من الصحيفة وحدها من غير قراءة على الشيخ وسماع منه .

٤

وبعد أن استوفينا — فى كل ما تقدم — الحديث عن الدعامة الأولى للرواية الأدبية : وهى الصحيفة المدوَّنة ، كان لا بد لنا من أن نتحدث عن الدعامة الثانية وهى الرواية الشفهية أو السماع . فانتهينا إلى ثلاثة أمور فصَّلناها فى ثلاثة فصول :

أولها : بحث لغوى فى دلالة لفظتى : رواية وراوية ، وأطوارهما اللغوية التاريخية ؛ دخلنا منه إلى تفصيل الحديث عن التدوين والرواية فى حفظ الشعر ، وذكرنا أن هذا التدوين الذى ذكرناه — على ما كان من وجوده بل من انتشاره — لم يكن له من سعة هذا الانتشار ما يتيح وجود نسخ كثيرة من الديوان الواحد تفى بحاجة القارئين آنذاك . لقد كان هذا الشعر — أو بعضه — مُدوَّناً ، ولكن تدوينه كان مقصوراً على نسخ معدودة — هى الأمهات أو المراجع ، ينسخها أفراد قلائل من الرواة أو الشعراء أو أبناء قبيلة الشاعر أو الممدوحين من السادة والأشراف ، ثم يحفظ هؤلاء جميعاً ، أو بعضهم ، هذا الشعر ، ويتناقلونه إنشاداً — لا قراءةً — فى مجالسهم ومشاهدهم وأسواقهم ، ويردِّدونه شفاهاً فى سَمرِهم ومحافلهم ومُنافراتهم ومواقف فخرهم ؛ فيشيع بين العرب ، ويتناقله الرُّكبان ، عن هذا الطريق من الرواية الشفهية ، من فرد إلى فرد ، ومن جيل إلى جيل ؛ لا عن طريق القراءة والمدارسة من الكتاب أو الديوان .

ثم انتهينا إلى الحديث عن أمر له قيمته وخطره ، وذلك هو اتصال رواية الشعر الجاهلىّ من الجاهلية نفسها إلى عصر التدوين العلمى فى القرن الثانى .

ومهّدنا لحديثنا بقول عمر بن الخطاب : « كان الشعر علم قوم لم يكن لهم علم أصحّ منه »، وتعقيب محمد بن سلاّم عليه بقوله : « فجاء الإسلام ، فتشاغلت عنه العرب ، وتشاغلوا بالجهاد وغزو فارس والروم ، ولهت عن الشعر وروايته . فلما كثُر الإسلام ، وجاءت الفتوح ، واطمأنت العرب بالأمصار ؛ راجعوا رواية الشعر ، فلم يؤولوا إلى ديوان مدوّن ولا كتاب مكتوب ، وألفَوْا ذلك وقد هلك من العرب من هلك بالموت والقتل ، فحفظوا أقل ذلك وذهب عليهم منه كثير » .

وقلنا إن كلام ابن سلاّم هذا ثلاثة أشطر : آخرها حق ، وسُوْسَطها باطل، وأولها يحتاج إلى فضل بيانٍ يوضّحه . أما الحق الذى لا مرية فيه فقوله : « فحفظوا أقل ذلك ، وذهب عليهم منه كثير » . وقد فصلنا وجه الحق فيه . وأما الباطل الذى لم نعد نشك فى بطلانه وفساده فهو هذا التعميم الواسع فى قوله : « فلم يؤولوا إلى ديوان مدوّن ، ولا كتاب مكتوب » . ولم نكتف بالتدليل على بطلان ذلك بما أوردناه فى البابين الأولين من حديث مفصل ، وإنما جمعنا من كتاب ابن سلام نفسه نصوصاً تنقض قوله هذا ، أو — على الأقل — تضيّق ما فيه من تعميم واسع . وأما الشطر الثالث الذى يحتاج إلى فضل بيان يوضحه فهو قوله : « فجاء الإسلام ، فتشاغلت عنه العرب ، وتشاغلوا بالجهاد وغزو فارس والروم ، ولهتْ عن الشعر وروايته ، فلما كثُر الإسلام ، وجاءت الفتوح ، واطمأنت العرب بالأمصار راجعوا رواية الشعر . . . وألفوا ذلك وقد هلك من العرب من هلك بالموت والقتل » . وفصلنا الرد على ذلك باستقراء تاريخى تتبعنا فيه حياة الرواية عند القوم ، مبتدئين بالمعالم الواضحة فى منتصف القرن الثانى الهجرى ، ومتدرّجين فيها إلى الوراء حتى وصلنا إلى أقصى ما استطعنا الوصول إليه من معالم حياة الرواية الأدبية .

فجمعنا من الروايات والأخبار ما يدل على أن القوم فى القرن الأول الهجرى لم يكونوا يكتفون برواية الشعر الجاهلى وإنشاده فى المجالس والمحافل ، وإنما كانوا

كذلك يعلّمونه الصبيان تعليماً: يروّونهم إياه ويؤدّبونهم به . ثم وقفنا وقفةً فيها شيء من التفصيل عند شعراء العصر الأموى — وخاصة جرير والفرزدق وسراقة البارق — وبيّنا، من شعرهم ، أنهم كانوا حلقة من حلقات الرواية الأدبية للشعر الجاهلى ولأخبار الجاهلية وأنسابها عامة . وانتقلنا إلى الحديث عن صدر الإسلام عصر الرسول الكريم وصحابته ، وفصلنا القول فى اتصال رواية الشعر الجاهلى فى زمنهم تفصيلاً وافياً ، وحين انتقلنا إلى الجاهلية ذكرنا من الروايات والأخبار ما انتهى بنا إلى أن إنشاد الشعر وروايته كانا دأب العرب فى جاهليتهم القريبة المتصلة بالإسلام ، حتى حين كانوا — وهم مشركون — يحاربون رسول الله . وبذلك قدمنا من الشواهد والأمثلة ما بيّن فى وضوح أن رواية الجاهلية : أشعارها وأخبارها ، لم تنقطع منذ الجاهلية ، بل لقد اتصلت فى زمن رسول الله وصحابته وخلفائه الراشدين ، واستمرّت طوال القرن الأول حتى تسلمها العلماء الرواة من رجال القرن الثانى . ولم تكن ثمة فجوة تفصل هؤلاء الرواة العلماء عن العصر الجاهلى ، وإنما تلقّفوه عمن تقدمهم ، وورثوه عمن سبقهم ، روايةً متصلةً وسلسلة محكمة ، يأخذها الخلف عن السلف ، ويرويها الجيل بعد الجيل ، حريصين عليها ، معنيّين بها .

وعقدنا الفصل الثانى من هذا الباب على طبقات الرواة ، فرأيناهم ستّ طبقات : الشعراء الرواة ، ورواة القبيلة ، ورواة الشاعر ، ورواةً مصلحين للشعر ، ورواة وضّاعين ، ورواة علماء . وفصلنا القول فى كل طبقة تفصيلاً ، ووقفنا عند الطبقة الأخيرة ، وهم : الرواة العلماء ، وقلنا إنها طبقة متميّزة من الطبقات السابقة ، ومدار تميّزها وتفرّدها على أنها اتخذت من الشعر موضوعاً علمياً ، تدرسه دراسةً ، بعد أن تأخذه عن شيخ أو أستاذ فى مدرسة من مدارس علم الشعر وروايته آنذاك، ونعنى بها تلك المجالس والحلقات التى كانت تُعقد فى المساجد أو فى منازل الشيوخ ، ويجتمع فيها التلاميذ من العلماء والمتعلمين ، يتحلّقون حول شيخ شُهِد له بالحفظ والرواية ومعرفة كلام العرب والإحاطة

الواسعة بشعرهم ، وذلك بالاطلاع الواسع على ما سبق عصره من جهود الرواة فى حفظ الشعر وتدوينه ، وتكون طريقة الدرس هى الرواية الأدبية بدعامتيها : الكتاب ، والسماع . وقلنا إن هذه الطبقة من الرواة العلماء كانت تجمع ما استطاعت جمعه من الشعر الجاهلى من الشيوخ المختلفين ، ومن أفواه الرواة من الأعراب ، ومن بعض الصحف المدوّنة ثم تدرسه ، وتمحّصه ، وتفحصه ، وتميز صحيحه من فاسده ، والثابتَ النسبة من المشكوك فيه ، وتنتهى من ذلك إلى تسجيل ما ترجح لديها صحته فى نسخة خاصة تصبح هى رواية ذلك الشيخ الراوية العالم ، ينقلها عنه تلاميذه وينسبونها إليه . وذكرنا أن هذه الطبقة من الرواة العلماء — بهذا التعريف الذى قدمناه والتحديد الذى قيدناها به — لم تكن موجودة فيما يبدو قبل مطلع القرن الثانى الهجرى ، وربما كان أولَ شيوخها الذين مهدوا الطريق لمن تبعهم فكانوا هم الرواد السابقين : أبو عمرو بن العلاء (المتوفى سنة ١٥٤) وحماد الراوية (المتوفى سنة ١٥٦) . ومن هنا كان قول ابن سلام « وكان أول من جمع أشعار العرب وساق أحاديثها : حماد الراوية » ، ومن هنا أيضاً قالوا : « كان خلف الأحمر أول من أحدث السماع بالبصرة ، وذلك أنه جاء إلى حماد الراوية فسمع منه » .

وخصصنا آخر فصول هذا الباب بالحديث عن الإسناد فى الرواية الأدبية ، وقابلنا بينه وبين الإسناد فى الحديث ، وشرحنا سبب التزام السند فى رواية الحديث والتحلل منه أحياناً فى رواية الشعر والأخبار . ثم عرضنا أمثلة من الأخبار المسندة التى يرتفع إسنادها إلى العصر الجاهلى بل إلى الشعراء الجاهليين أنفسهم ؛ ونماذج أخرى يسنِد فيها العلماء الرواة من الطبقة الأولى إلى من سبقهم وكان فيهم من أدرك الجاهلية . ثم قلنا إن الإسناد فى الرواية الأدبية قد أصبح فى الغالب قاعدة عامة بعد القرن الثانى الهجرى ، وأنه كان ينتهى إلى شيخ من شيوخ الطبقة الأولى من العلماء الرواة ، وأما هؤلاء العلماء الرواة من الطبقة الأولى فلم يكونوا فى الغالب يُسنِدون إلى من قبلهم ، مع وجود الإسناد نفسه مما مثلنا له بالشواهد والأمثلة .

٥

ثم كان لا بد لنا أن نعرض آراء القدماء والمحدثين فى صحة الشعر الجاهلى ، فمهدنا لهذا الباب بحديث موجز عن « المشكلة الهومرية » ، وعرضنا للوجوه الكثيرة من التشابه القريب بين الشعرين : العربى الجاهلى والهومرى ، وانتهينا إلى بيان جهود الدارسين الأوربيين فى ثلاثة أمور ؛ أولها : من نظم الإلياذة والأوديسة ، وصحة نسبتهما إلى هومر . وثانيها : وسيلة حفظ الشعر الهومرى : أكانت الرواية الشفهية أم الكتابة . وثالثها : المدارس اللغوية القديمة التى درست شعر هومر ونقدته بعد أن جمعته ودونته .

ثم تحدثنا فى الفصل الثانى عن آراء القدماء ، من علماء العرب ، فى الوضع والنحل ، وألممنا بما جاء فى كتبهم من إشارات متفرقة إلى ذلك ورتبناها ، ثم فصلنا القول فى كتاب السيرة لابن إسحق واستدراكات ابن هشام عليه ؛ وفى كتاب طبقات فحول الشعراء لمحمد بن سلام .

وعقدنا الفصل الثالث لبيان آراء المستشرقين فى صحة الشعر الجاهلى ، فعرضنا عرضاً مفصلاً آراء مرجوليوث ، وليال ، ودلافيدا ، وبذلنا أقصى الجهد فى نقل أدلتهم وبراهينهم وردودهم مفصلة واضحة .

ثم انتقلنا فى الفصل الرابع إلى الحديث عن آراء المحدثين : فعرضنا رأى المرحوم الأستاذ مصطفى صادق الرافعى وهو أول من طرق هذا الموضوع من المحدثين . ثم أسهبنا فى بيان رأى الدكتور طه حسين ، وردود الذين ألفوا كتباً فى الرد عليه . واستغنينا بردودهم عن التفصيل فى الرد لسببين :

أولهما : أننا التزمنا — كما نبهنا على ذلك فى مواطن متفرقة — منهجاً واضحاً فى كتابة هذا البحث ، يقوم على الدراسة الخارجية لمصادر الشعر الجاهلى من غير أن نخوض فى تفصيلات الدراسة الداخلية وأجزائها ، والكثرة الغالبة من

شواهد الدكتور طه حسين إنما تعتمد على الدراسة الداخلية .

وثانيهما : أننا رتّبنا آراء الذين ردُّوا على الدكتور ترتيباً مفصلا واضحاً بحيث يقابل كلّ رأى من آرائه ردُّه المفصل ، فجاء هذا الترتيب — فى جملته وبجموعه — معبّراً عن رأينا ، فاستغنينا به عن الإعادة والتكرار .

ثم ختمنا هذا الباب بحديث مفصل عن توثيق الرواة وتضعيفهم وعن مدوسّى البصرة والكوفة . وجمعنا بعض الروايات والأخبار التى يتّهم فيها القدماء بعضهم بعضًا بالكذب والنحل والوضع ، وخاصة الأخبار الكثيرة عن حماد الكوفى وخلف الأحمر البصرى ، ودرسناها دراسة مفصلة انتهينا منها إلى إظهار الوضع والتلفيق فى كثير من هذه الأخبار ، ثم بيّنّا أسباب تحامل تلاميذ كل مدرسة على تلاميذ المدرسة الأخرى ، بل تضعيف تلاميذ المدرسة الواحدة أحياناً لبعض زملائهم . وأرجعنا كل ذلك إلى عصبيات قبلية حيناً، وسياسية حيناً آخر ، وخلافات منهجية بين مدرستين مختلفتين حيناً ثالثاً ، وخصومات شخصية حيناً رابعاً .

وكان لا بد لنا من أن نفصل القول فى منهجى هاتين المدرستين والمصادر التى استقى منها علماء كل مدرسة الحديثَ واللغة والشعر الجاهلى ، فوجدنا أن المذهب البصرى قائم فى جملته على التشدُّد والتضييق والميل إلى التقعيد والقياس ، وأن الكوفيين كانوا أكثر حرية ، وأكثر جرأة ، وأنهم قد توسّعوا حين ضيّق البصريون وتوقّفوا ، وأخذوا عن مصادر لم يرتضها البصريون . ومن هنا كثرت رواية الكوفيين فاتّهمهم البصريون بالتزيد والوضع . وقلنا إن رواية اللغة والشعر عند الكوفيين كان فيها كثرة لا تكثُّر وزيادة لا تزيُّد ؛ وانتهينا إلى نفى تهمة الوضع المتعمَّد والكذب عن هؤلاء العلماء من المدرستين معاً ، ومع ذلك فإننا لم ننفِ أن فى الشعر الذى رووه ما هو موضوع منحول ، غير أنهم لم يكونوا هم الذين وضعوه ونحلوه ، وإنما رواه بعضهم كما وجده ، ثم قاسه على ما بين يديه من مقاييس نقدية تتفق مع منهجه ، فأسقط بعضه وصحّح بعضه ؛ واختلف

علماء المدرستين فيما أسقطوا وفيما صححوا لما بيّناه من اختلاف مناهجهم واختلاف مصادرهم .

ثم وقفنا عند كلمة « منحول » ، وفرّقنا بينها وبين كلمة « موضوع » ، وقلنا إن هؤلاء العلماء كانوا يقولون أحياناً إن هذا الشعر منحول لامرئ القيس ، ويقصدون أنه شعر قديم جاهلي لا يشكّون في قِدَمه وجاهليته ، ولكنهم يشكّون في نسبته إلى امرئ القيس بعينه مثلاً . وذكرنا أيضاً أن هؤلاء العلماء كانوا أحياناً يسمعون قصيدة جاهلية يرويها أحد الرواة ولكنه لا ينسبها ، لأنه نسي نسبها أو لأنه رواها من غير نسبة ، فيستمع إليها العالم الراوية ويرجّح نسبها إلى شاعر جاهلي بعينه ، لأنه رآها أقرب إلى روح ذلك الشاعر وطابعه الفني لكثرة دراسته لشعره ومعرفته بخصائصه . وأوردنا لكل ذلك من الشواهد والأمثلة ما يوضحه .

٦

وبعد أن اطمأننا إلى المحاولة التي أفرغنا فيها جهدنا لملء هذه الفجوة بين الشاعر الجاهلي نفسه ، والطبقة الأولى من العلماء الرواة ، وأظهرنا أن الرواية الشفهية والتدوين كانا يسيران معاً جنباً إلى جنب في حلقة متصلة من الجاهلية — أو على الأقل من صدر الإسلام — إلى القرن الثاني ، كان لا بدّ لنا أن نتحدث عن هذه الدواوين التي رواها هؤلاء العلماء الرواة ، ونقلها عنهم تلاميذهم ، حتى وصلت إلينا .

وكان ذلك موضوع حديثنا في الباب الخامس من هذا البحث ؛ فقسمناه إلى أربعة فصول : تحدثنا في الفصل الأول عن الدواوين المفردة بعامة ، وديواني امرئ القيس وزهير بخاصة ، وتحدثنا في الفصل الثاني عن دواوين القبائل ، وأفردنا ديوان هذيل بحديث مفصل . وتحدثنا في الفصل الثالث عن مجموعات المختارات كالمفضليات والأصمعيات وحماسة أبي تمام وجمهرة أشعار العرب . ثم

تحدثنا فى الفصل الرابع عن الشعر الجاهلى فى غير الدواوين ، فاستقرأناه فى بعض كتب التفسير والحديث ، واللغة والنحو ، والتاريخ والمغازى ، وكتب الأدب العامة.

وانتهينا من هذا الباب إلى أمرين :

الأول : أن هذه الكتب التى ذكرناها فى الفصل الأخير — على كثرة ما فيها من الشعر الجاهلى الصحيح — ليست مصدراً من مصادر هذا الشعر ، وذلك لأن مؤلفيها لم يقصدوا إلى أن يجعلوها مصدراً يستقى منه الباحثون شعر الشاعر ، ولم يتخذوا من الشعر الجاهلى هدفاً لهم : يجمعونه ويدرسونه ويصححونه ، وإنما اتخذوا هذا الشعر وسيلة يتوسلون بها إلى الاستشهاد به أو التمثل أو الاحتجاج أو تزيين ما يوردون من قصص وأخبار . وقد درسنا هذه الكتب دراسة مفصلة واستخرجنا منها مناهج مؤلفيها فى إيراد الشعر الجاهلى بحيث انتهينا إلى هذه النتيجة.

والثانى : أن مصدر الشعر الجاهلى هو الدواوين نفسها ، وكتب المختارات الموثوق بروايتها ، ولا يعنينا من الدواوين إلا المروية ذات الإسناد إلى عالم راوية . وقد وجدناها على ضربين :

ضرب تستقل فيه رواية مفردة قائمة بذاتها : كرواية الأصمعى وحده أو المفضل وحده .

وضرب تجتمع فيه روايات مختلفة لعلماء من مدرسة واحدة أو من المدرستين معاً ، كتلك الدواوين التى جمعها علماء الطبقة الثانية وعلماء الطبقة الثالثة ، فأوردوا فيها روايات متعددة ، ولكنهم كانوا ينصون على أن هذه القصيدة من رواية الأصمعى وأن تلك من رواية المفضل ، وأن فلاناً انفرد برواية هذا الشعر أو ذلك ، أو أنه قد دفع هذه القصيدة أو أنكر تلك . بل لقد نصوا على الاختلاف فى رواية الأبيات والألفاظ . والدارس المتتبع يستطيع ببعض الجهد والعناء أن يجرد من هذه الروايات المجتمعة روايات منفردة قائمة بذاتها ترجع ، كالضرب الأول ، إلى عالم من الطبقة الأولى من الرواة ، وخاصة الأصمعى والمفضل .

• • •

وبذلك نكون قد وضعنا أصول مقياس واضح المعالم لدراسة الشعر الجاهلي ومعرفة صحيحه ، وذلك بأن نأخذ من شعر الشاعر القدر الذي اتفقت عليه المدرستان البصرية والكوفية معاً ، فنطمئن إلى أن هذا القدر المشترك هو أقرب ما يكون إلى الصحة ، ثم ندرسه دراسة فنية داخلية بحيث نستشف روح الشاعر ، وطابعه وخصائصه الفنية واللغوية ، حتى إذا أقمنا هذا المقياس الداخلي ، احتكمنا إليه في صحة الشعر الباقي الذي انفرد بروايته أحد الرواة الأثبات ، ثم الذي انفرد بروايته راوٍ آخر ، ثم ما رواه غيرهما ، فما استقام على هذا المقياس الداخلي رجّحنا صحته وضممناه إلى القدر المشترك الأول ، وما لم يستقم نفيناه وطرحناه .

* * *

أما ما حقّقه هذا البحث من جديد فأرجو أن يكون واضح المعالم بارز القسمات في ما قدمت من فصول وأبواب ، بحيث يغنيني عن إعادة الحديث فيه ، ويجنّبني مزالق الإدلال به والاستكثار بذكره .